عجلهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر وكما أنه محال أن يطيقوا
ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه
وهم يبذلون أكثر منه انتهى **فصل** لما ثبت كون القرآن معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز
وقد خاض الناس في ذلك كثيرا فبين محسن ومسيء فزعم قوم أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات وأن العرب
كلفت في ذلك ما لا يطاق وبه وقع عجزها وهو مردود لأن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي به والصواب ما قاله
الجمهور أنه وقع بالدال على القديم وهو الألفاظ ثم زعم النظام أن إعجازه بالصرفة أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب
عقولهم وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات وهذا قول فاسد بدليل قل لئن اجتمعت الإنس
والجن الآية فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع
الموتى وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن فكيف يكون معجزا وليس
فيه صفة إعجاز بل المعجز هو الله حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله وأيضا يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال
زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول العظمى باقية ولا معجزة له باقية
سوى القرآن قال القاضي أبو بكر ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن
الكلام معجزا وإنما يكون بالمنع معجزا فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه قال وليس هذا بأعجب من قول فريق
منهم إن الكل قادرون على الإتيان بمثله وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به ولا بأعجب
من قول آخرين إن العجز وقع منهم وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله وكل هذا لا يعتد به وقال قوم وجه إعجازه
ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة ولم يكن ذلك من شأن العرب وقال آخرون ما تضمنه من الإخبار عن قصص
الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها وقال آخرون ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر من غير
أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله
وقال القاضي أبو بكر رحمه الله وجه إعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترتيب وأنه خارج عن جميع وجوه النظم والترصيف خ
المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم قال ولهذا لم يمكنهم معارضته قال ولا سبيل إلى معرفة إعجاز البيّ
القرآن من أصناف البديع التي أودعوها في الشعر لأنه ليس مما يخرق العادة بل يمكن استدراكه بالعلم
والتدريب والتصنع به كقول الشعر ووصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة وله طريق تسلك
فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا قال ونحن نعتقد
أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعضه أدق وأغمض وقال الإمام فخر الدين وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب
والسلامة من جميع العيوب وقال الزملكاني وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف بأن اعتدلت
مفرداته تركيبا وزنة وعلت مركباته معنى بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى وقال ابن عطية
الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه وذلك
أن الله قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح
أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم
ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا يبطل قول من قال
إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط ولهذا ترى البليغ ينقح

القصيدة

القصيدة أو الخطبة حولا ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا وكتاب الله سبحانه وتعالى لو نزعت منه لفظة
ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع
لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا
أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة موسى بالسحرة وفي معجزة عيسى بالأطباء فإن الله
إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره فكان السحر قد انتهى في مدة
موسى إلى غايته وكذلك الطب في زمن عيسى والفصاحة في زمن محمد صلى الله عليه وسلم وقال حازم في منهاج البلغاء
وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا يوجد له فترة
ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في العالي
منه إلا في الشيء اليسير المعدود ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك
الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه وقال المراكشي في شرح المصباح الجهة المعجزة في القرآن تعرف
بالتفكر في علم البيان وهو كما اختاره جماعة في تعريفه ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى وعن تعقيده وتعرف
به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظه وإلا لكانت قبل
نزوله معجزة ولا مجرد تأليفها وإلا لكان كل تأليف معجزا ولا إعرابها وإلا لكان الإعجاز يوجد منه ولا بالأسلوب في نحو
فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا بل صرفوا ولا بالصرف عن معارضتهم لأن تعجبهم كان من فصاحته ولأن
مسيلمة وابن المقفع والمعري وغيرهم قد تعاطوها فلم يأتوا إلا بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع ويضحك منه
في أحوال تركيبه وبها أي بتلك الأحوال أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء فعلى إعجازه دليل إجمالي وهو أن العرب عجزت
عنه وهو بلسانها فغيرها أحرى ودليل تفصيلي مقدمته التفكر في خواص تركيبه ونتيجته العلم بأنه تنزيل
من المحيط بكل شيء علما وقال الأصبهاني في تفسيره اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين أحدهما إعجاز متعلق بنفسه
والثاني بصرف الناس عن معارضته فالأول إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه أما الإعجاز المتعلق بفصاحته
وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى فإن ألفاظه ألفاظهم قال تعالى قرآنا عربيا بلسان عربي وكذا
بمعانيه فإن كثيرا منها موجود في الكتب المتقدمة قال تعالى وإنه لفي زبر الأولين وما هو في القرآن من المعارف
الإلهية وبيان المبدأ والمعاد والإخبار بالغيب فإعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن بل لكونها
حاصلة من غير سبق تعليم وتعلم ويكون الإخبار بالغيب إخبارا بالغيب سواء كان بهذا النظم أو بغيره موردا
بالعربية أو بلغة أخرى بعبارة أو إشارة فإذا بالنظم المخصوص صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصره وباختلاف
الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره كالخاتم والقرط والسوار فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها
لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد فإن الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتما
وإن كان العنصر مختلفا وإن اتخذ خاتم وقرط وسوار من الذهب اختلفت أسماؤها باختلاف صورها وإن كان العنصر واحدا
قال فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص وبيان كون النظم معجزا يتوقف على بيان نظم الكلام
ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه فنقول مراتب تأليف الكلام خمس الأولى ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى
بعض لتحصل الكلمات الثلاث الاسم والفعل والحرف والثانية تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصل الجمل
المفيدة وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعا في مخاطباتهم وقضاء حوائجهم ويقال له المنثور من الكلام والثالثة

وإلا لكان كل كلام معرب معجزا ولا مجرد أسلوبه وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا والأسلوب الطريق ولكان هذيان مسيلمة معجزا صح

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)